محمد حافظ إبراهيم[1]

(بمناسبة المهرجان الذي أقامه لذكراه المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية)

(1)

تُرى لو أن حافظًا -رحمة الله عليه- تأخر به الزمن سبعين عامًا فظهر في أواسط هذا القرن لا في أواخر القرن الماضي، أكان ذكره يرتفع هذا الارتفاع، وذكراه يحتفل بها هذا الاحتفال!؟

أغلب الظن أن حافظًا لو نشأ في هذا الجيل لكان له أمر غير هذا الأمر وتاريخ غير هذا التاريخ. ذلك أن العبقري ابن إقليمه وبيئته وزمنه وظروفه وأحواله، فهي التي تعده وتكيفه وتوجهه، وتتيح له الفرص لينجح، وتهيئ له الأسباب ليمتاز، وتركز عليه الضوء ليظهر. وعلى حسب عواملها المختلفة الأثر في النوابغ تكون طبيعة النبوغ ونوعه ودرجته. فالنابغ في شيء معين في زمن معين قد لا تتهيأ له وسائل النبوغ فيه إذا تغير الزمن أو اختلفت البيئة. فالمتنبي مثلا لو لم يظهر في القرن الهجري الرابع إذ كان الملوك شعراء والوزراء وأدباء والشعب مرهف الحس لروائع الأدب لما ملأ الدنيا ولا شغل الناس.

وابن عربي لو عاش في غير عصره الذي كان يؤمن بالروح والإلهام والولاية، والفناء المطلق في الله، والتعبير الرمزي عن الحقيقة، لعد في المجانين لا في العباقرة،

---

(1) قلت: هو شاعر مصري من الرواد الأعلام، ومن أبرز الشعراء العرب في العصر الحديث، نال لقب شاعر النيل بعد أن عبر عن مشاكل الشعب، فهو الشاعر الإنسان الذي احب الأدب والشعر، وعكف على مطالعة الكتب، كان يعشق المزاح والمداعبة، غيور على الأمة وشخصيتها ولغتها وهويتها، كريم معطاء؛ ولاسيما على الفقراء، تميز بعاطفة قوية ونفس فنية سمت به على أقرانه من أهل عصره، تناول شعره أشكالاً مختلفة وبرع في الأشعار الوطنية والرثاء، وينتمي الي طائفة الشعراء المتميزين الذين عرفوا بشعراء عصر الإحياء، مثل محمود سامي البارودي، واحمد شوقي وغيرهم.

ونابليون لو انبعث في عصر الجواد والسيف إلى عصر الطائرة والدبابة لما أغنت عبقريته الحربية عن قومه شيئًا في بورسعيد.

وحافظ لو تأخر إلى هذا الجيل لاختلف عما كان عليه في نمط حياته ونوع ثقافته ولون تفكيره وطبيعة عمله ومدى نبوغه. كان لا يشتهر مثلاً بابتكار النكت وجمع الأحاديث وحفظ الأشعار لأن النزوع إلى هذا النوع من التأدب كان بمقتضى لحال اجتماعية زالت اليوم، فلا مجالس للسمر في قصور الملوك، ولا محافل للأدب في دور السادة.

وكان لا يقتصر في ثقافته على علم الشاعر القديم؛ لأن التكسب بالشعر أو بالمنادمة أصبح في رأي هذا الجيل بطالة لا تغني من جوع أو كدية لا تليق برجل. ولعله كان ينصرف عن الشعر إلى القانون أو الطلب أو الحرب فلا يقوله إلا تزجية لفراغ أو تسلية لهم، لأن مجتمع الجيل الجديد كان لجهله باللغة الفصحى وزهده في الأدب الرفيع لا يجد جمالاً في شعر هو لا يلقى بالاً إلى إنشاده. أما مجتمع الجيل القديم فقد كان إذا طلعت عليه المؤيد أو الأهرام حالية الصدر بدرة من درر شوقي أو بقلادة من قلائد حافظ أقبل عليها يقرؤها بشغف ويتذوقها بلذة وينقدها بعلم؛ ثم تضطرب بها الألسنة وتتحدث عنها الأندية فتفعل في نفوسه ما تفعله اليوم في نفوسنا غنية كأغنية: (يمَّه الأمرَ عَ الباب) والجيلان الماضي والحاضر يتصلان ويتداخلان ويتعايشان، ولكنهما على الرغم من المدة القريبة والصلة الوثيقة يختلفان أشد الاختلاف في أحوال الاجتماع وألوان الثقافة:

كان جيل حافظ لا يزال يعيش على بقايا تخلفت من تقاليدنا الجميلة في الجامعات والأسر. فالناس يجرون على أثر من خلال الفتوة العربية، يرتاحون للندى، ويتنافسون في المعروف، ويهتزون للبطولة، ويطربون للبيان، ويجيزون على الشعر، ومناظر الدور وأبهاة القصور تأخذ في كل مساء زخرفها من أهل الأدب ورجال السياسة وأصحاب الجاه وأرباب الحكم. وكان مدار الحديث فيها على النكتة البارعة والخبر الطريف والمسألة الدقيقة والبلاغة المأثورة يتساقطها السامرون على محض المودة ووثوق الألفة فتفتق الذهن وتصقل الذوق وتوجه الميل وتنيل الحظوة. وكانت المواهب

والملكات تنفتح في جوانب هذه الأندية فتدل على نفسها أهل النفوذ فيقبلون عليها حتى تزهر وتثمر. وكانت النهضة الأدبية والحركة الفكرية يومئذ في طور الانتعاش تتحركان للنمو والسمو على نغمات المرصفي والبارودي والأفغاني ومحمد عبده وسلمان وحمزة والشنقيطي واليازجي والمويلحي ونديم وسعد وفتحي وقاسم ومصطفى. فالمجالس تُشيع حر الكلام، والصحف تذيع بارع النقد، والخديويون يتخذون من الأدباء ندامى ومن الشعراء بطانة، حتى قَرَّ في نفس حافظ وأنداده أن الأدب كان سبيل الثراء لليثي، وسبب المجد للبارودي، ووسيلة الزلفى لشوقي، فتجهزوا لهذه الغاية بجهاز هذه البيئة فرووا رقائق الشعر، وجمعوا مقطعات الأحاديث، وراضوا أنفسهم على معاناة القريض. وكان قادة الفكر والبيان في ذلك الجيل من شيوخ الأزهر ودار العلوم ومن تخرج على أيديهم في مدرسة الحقوق ومدرسة القضاء ومدرسة المعلمين العليا، وكانت ثقافتهم تقوم في الأغلب على الدين واللغة والأدب فهم يتعمقون القواعد ويؤثرون الفصحى.

وكان قراؤهم في المدن والقرى من طلاب الأزهر وحفاظ القرآن، فهم يؤمنون بلغة الكتاب ويطربون للأسلوب العربي الخالص.

أما الجيل الحاضر فخلاصة القول فيه أنه جيل اللغة العامية ولثقافة الأجنبية والتحرر من قيود البلاغة في النثر، والخروج عن حدود العروض في الشعر، والاتجاه إلى أدب واقعي متطرف يكلم الشعب بلغته وبصوره في مباذله ويفتنه عن حبه الغريزي لحسن العرض وجمال الأسلوب. فماذا كنتم تظنون أيها السادة أن يكون مصير حافظ لو أنه عاش في هذا الجيل ومزيته الكبرى هي الصياغة، وطريقته المثلى هي البلاغة؟.

(2)

ولد محمد حافظ في السنة السبعين من القرن التاسع عشر بذهبية كانت راسية على ساحل ديروط بالصعيد الأعلى يقيم فيها أبوه المصري الصميم إبراهيم فهمي مهندس الري المشرف على القناطر، وأمه التركية الأصل السيدة هانم البورصلية، فكان أول ما فتح عليه عينيه من صور الدنيا نهرنا الخالد. فتلقيبه بعد ذلك بشاعر النيل تلقيب صادق يستمد صدقة من النفحات الشعورية الأولى في هذه العوامة، ثم من التجارب الشعرية

التي استجابت لها قريحته في القاهرة. وظل مهده القائم بين الماء والشجر محفوفًا بمظاهر الحنان والنعيم أربع سنوات ثم فجعه الموت في أبيه فانتقلت به أمه إلى القاهرة ونزلت في حي المغربلين على أخيها محمد أفندي نيازي المهندس بمصلحة التنظيم وليس في يدها مال موروث عن الزوج ولا في أملها معاش مقرر من الحكومة.

ومنذ يومئذ عرف الطفل الغرير معنى البؤس فاغبر لون الوجود في عينه، وتنه طعم العيش في ذوقه، وبانت علائم اليتم على ملبسه ومطلبه ومكتبه، فكان في مرحلة التعليم الأولى بالمدرسة الخيرية بالقلعة، وفي مرحلة التعليم الابتدائي بمدرسة القربية بتحت الرَّبع، وفي مرحلة التعليم الثانوي بالمدرسة الخديوية بدرب الجماميز، يكابد ذل الحرمان كلما وجد أكثر رفاقه يطلبون فيجدون ويشتهون فينالون، وهو إذا اشتهى طلب من أمه التي لا تملك أو من خاله الذي لا يجود.

ثم تدخل القدر في حياة حافظ ليحول مجراها إلى الوجه الذي قدره، فحوله من القاهرة والمدرسة الخديوية والوظيفة الحكومية إلى طنطا والجامع الأحمدي والبطالة الأدبية. ولو أن خاله استمر في القاهرة لنال حافظ شهادة الدراسة الثانوية وابتغى بها العيش في ضمان الحكومة وانتهى أمره إلى أن يصير عبدًا للرسوم الديوانية والصيغ التقليدية لا أمير للشعر ولا زعيمًا للكتابة. ولكنه انتقل إلى مثل وظيفته في عاصمة الغربية فلم يجد حافظ في طنطا مدرسة ثانوية، ولم يجد في مرتب خاله فضلاً يعيش عليه في القاهرة ليتمم دراسته في الخديوية، فانقطع عن الدراسة وأخلد إلى البطالة وأخذ يرود المجالس ويغشى الأندية حتى اتصلت بينه وبين شداة الأدب من طلاب المعهد الأحمدي أسباب المودة فأجروه على منهاجهم في الدرس، وأعدوه من ولوعهم بالأدب، فاختلف معهم كل يوم إلى حلقات الجامع الأحمدي يشاركهم في درس النحو والصرف، ثم ينفرد عنهم بالنظر في دواوين الشعراء يقرأ منها الجيد ويحفظ الأجود وينظم على مثال ما حفظ في البحر والقافية والموضوع. فإذا لقي إخوانه بمجتمعهم في المدينة أو بمتنزههم في الضاحية، أمتعهم بالمعجب المطرب من حفظه. وأسمعهم الجديد المختار من نظمه.

وكان من هؤلاء الإخوان المؤرخ الأديب المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فوصف لقاءه الأول لحافظ بقوله: " عندما عدت من القرشية إلى المعهد بطنطا في شعبان من سنة 1305هـ أو في إبريل من سنة 1888م رأيت إخواني وأصدقائي يلوذون بفتى غض الإهاب جديد الشباب وقد أسرعوا بتقديمي إليه وتقديمه إليّ باسم الأديب محمد حافظ إبراهيم. ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسي ميلاً إليه بجاذب من الأدب الذي كان نهمة نفسي حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه وما اشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ومطاوعة بديهة وحضور نادرة. وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلي المغرب والعشاء والتراويح معًا، ثم نلبث في سمر ممتع ومطارحة للشعر ومذاكرة في نوادر الأدب وما كان يطرفني به مما يقف عليه من جيد القريض إلى أن يأتي وقت السحور. ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا فيه إلى انبثاق الفجر فنؤديه ثم نخرج بغلس إلى خارج المدينة ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع فيذهب كل منا إلى بيته ".

وظل حافظ على تلك الحال سنة أو تزيد، يقرأ ويحفظ ويحاكي لا يبتغي بذلك بناء مستقبله ولا ضمان رزقه، وإنما يبتغي به تلك اللذة المجردة التي يجدها عشاق الأدب في مطلق الهيام به والفناء فيه. وهذه الحال الباهلة لازمت الشاعر طول عمره فلم يزاول عملاً عن رغبة، ولم يتحمل مسئولية عن إرادة. ونفوره من العمل كان أثرًا لنفوره من الحياة ، ونفوره من الحياة كان أثرًا لعشه الذي تقوض وهو طفل، ولعيشه الذي نبا وهو رجل. والمظنون أن خاله وهو ولي أمره ومسدد خطاه قد حاول أن يعالج فيه هذه الحال ليضمن لأخته الأمان في كنف وحيدها لو أنه نجح في صنعة أو وظيفة، ولكن روح الاستهتار التي استمدها حافظ من أرواح الشعراء البوهيميين الذين اضطربوا في حضارة العصر العباسي من غير نظام ولا قيد ولا غاية أصمت أذنيه عن النصح وشلت يديه عن العمل. وكان من الطبيعي أن يضيق به خاله ويزوي عنه وجهه. ورأى من خاله هذا الإعراض فتنازعته خوالج الهم من يتم وعدم وهوان نفس وسوء حال فكتب إلى نيازي أفندي هذين البيتين:

ثقلـــــت عليـــــك مـــــؤونتي وأنـــــا أراهـــــا واهيـــــة

فـــــافرح فـــــإني ذاهـــــب متوجـــــه فـــــي داهيـــــة

والبيتان من ركيك الشعر ولكن في قوله (متوجه في داهية) أثرًا من خفة ظله وعذوبة روحه. وكانت الداهية التي توجه فيها حافظ غرفة أحد إخوانه المجاورين في الجامع الأحمدي فأقام معه زمنًا، وكان شعره الساذج في هذه الفترة يترجم عما يكابد في صدره من لوعة الأسى وبغض الحياة. من ذلك ما رواه رفيقه الشيخ النجار وهو قوله:

عجبت لعمري كيف مُدَّ فطالا وما أثرت فيه الهموم زوالا
وللموت مالي قد أراه مباعدًا وجل مرادي أن أوسَّد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها ذليلاً وكنت السيد المفضالا

ثم ترضاه خاله فعاد إلى داره. وكان رجاء أمه فيه وزراية خاله عليه قد حركا في نفسه الخامدة عزم الشباب وطموح الرجولة، فعزم على أن يسعى للعيش المستقل الحر. ونظر فيما يملك لهذا السعي من وسائل فلم يجد خيرًا من وسيلة البلاغة فاختار المحاماة. وكانت المحاماة يومئذ مفتحة الأبواب لكل داخل مادام طلق اللسان حاضر البديهة واسع الحيلة فدخلها من باب سعد والهلباوي وأبو شادي وحسن عبد القادر. وكان أول مكتب اختاره للتمرين مكتب الشيخ محمد الشيمي بطنطا فبدأ بداية حسنة، ثم اختلف مع الأستاذ على الأجر بعد قليل فتركه بعد أن ترك له هذين البيتين:

جراب حظي قد أفرغته طمعًا بباب أستاذنا الشيمي ولا عجبا
فعاد لي وهو مملوء فقلت له مما؛ فقال من الحسرات واحربا

ثم انتقل إلى مكتب المحامي النابه محمد أبو شادي فأجل قدره ورفع أجره، ولكنه لم يلبث أن تحول عنه إلى مكتب عبد الكريم فهيم فعمل فيه مدة، ثم أدركه الملل وعضه القيد فهجر المحاماة وعاد يزجى وقته بالتثاؤب والتمطي ويقضي يومه في التلهي بالشعر والتجني على القدر، وكانت المحاماة هي سبيله القصد إلى الثروة والشهرة لولا ما ركب في طبعه من ضعف الاحتمال ولزوم القلق.

(3)

وتحدثت الصحف والناس عن المدرسة الحربية في نظامها الجديد فوقع في نفس حافظ أن يدخلها ليخفف النفقة عن خاله ويضمن الرزق له ولأمه، ثم تخرج فيها سنة 1891م وقضى في الجيش ثلاث سنين وبعض السنة. ثم نقل إلى العمل في البوليس ببني سويف، إذ كان المتبع قبل إنشاء مدرسة البوليس والإدارة أن يؤخذ من الحربية الداخلية، ولم يلبث ملاحظ البوليس أن برم كعادته بالعمل وضاق ذرعًا بالنظام فأخطأ ولج به الخطأ، واستلام واشتد عليه اللوم. فلم يجد البوليس بدًا من إعادته إلى الجيش بعد حادثة رواها هو عن نفسه قال:

" كنت نائمًا في بيتي وإذا برسالة من شيخ البلد في قرية من قرى الشرقية لعلها الإبراهيمية تقول: وقع حائط وزهقت أرواح. فانتقلت بغلس من الليل راكبًا جوادي حتى وصلت إلى القرية، وراعني أن وجدت جدارًا قد انقض حقًا وقُتلت تحته ثلاث دجاجات. قلت لشيخ البلد: أين الأرواح التي زُهِقَت؟ فقال متلعثمًا: والله يا سيدي؛ أنا تشاحنت مع نسايبي فحلفت بالطلاق لأحضر البوليس هنا. وأخذت ألتمس الوسيلة إلى ذلك حتى علمت أن حائطًا سقط ومات تحته ثلاثة أفراخ فأرسلت هذه الرسالة ليسرع إلينا البوليس وأبر بالقسم العظيم. فقلت له وأنا أكاد أتميز من الغيظ: والله لتكونن روحك إحدى الأرواح التي زُهقت كما زعمت، وانهلت عليه ضربًا حتى كاد ينفق ".

وعاد حافظ إلى الجيش ليُحال إلى الاستيداع خمسة أشهر. ثم عاد إليه ثانية ليُنقل إلى السودان فيقضي به أربع سنين تحت قيادة عدوه الإنجليزي كتشتر. وهناك وجد الفرصة ليستغل في نفسه براعة المحامي وبلاغة الخطيب، فكان يدافع عمن يقدم من الضابط إلى المجالس العسكرية الإنجليزية. وفي خلال ذلك كان يؤرث نار الفتنة في الجيش حتى ثار الضباط المصريون على رؤسائهم من الإنجليز سنة 1899م فاتهم بهذه الثورة هو وثمانية عشر ضابطًا أُحيلوا على الاستيداع وظل الضابط الثائر مستودعًا ثلاثة أعوام ونصف عام، ثم خرج على المعاش في سنة 1903م.

(4)

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة النابية المبهمة لا يستربض لعمل، ولا يستقر على أمر، ولا يتشوف إلى غاية، وظن أن الشعر وحده يشغل الحياة ويبسط الرزق ويكسب الحقوق، فعاش عيش مسلم بن الوليد وأبي نواس وأضرابهما ممن قضوا أعمارهم صنائع للملوك ووسائل للهو وحمائل على الجوائز، فأبى الوظيفة وآثر أن يحيا في ظلال الإمام محمد عبده ينتفع بجاهه ويفيء إلى رفده، ويفشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامر أهلها بعذب حديثه ويندمهم برقيق شعره. ثم يتطلع الحين بعد الحين إلى صلات القصر فيحجبه عنها شوقي شاعر الأمير محوله وطوله.

ومن دأب الشعراء الكاسبين بالشعر أن يبذروا إلى حد السفه إذا عاشوا للحاضر، كصريع الغواني وابن هاني، وأن يقتروا إلى حد الكزازة إذا عاشوا للمستقبل، كأبي العتاهية والبحتري. ومن الأولين كان حافظ. تمتلئ يداه بالمال اليوم فتعتريه حال من الضجر والقلق لا تنفك عنه حتى يتلفه كله قبل الغد على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب كإمام العبد وخليل نظير، وأحمد فؤاد، ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكي في لؤم الزمان وظلم الإنسان وشقاء الأديب.

كان حافظ يطلب الثروة على قدر طموحه، والحظوة على قدر نبوغه، ولكنه طلبهما من طريق الحق الذي يوجبه كل شاعر على الناس، لا من طريق الواجب الذي يؤديه كل إنسان إلى المجتمع. فلما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج إلى الفلاكة الشاعرة الصابرة يحمل بؤسه على حرفة الأدب كما يحمل المؤمن رزءه على حكمة القدر. ثم عاش عيش الطائر الغرد، عمره ساعته، ودنياه روضته، وشريعته طبيعته، ودأبه أن يطير في الغيم والصحو، ويشدو في الطرب والشجو، ثم يسقط على الحب أينما انتثر.

فلما عطف عليه الوزير الأديب أحمد حشمت فأكرمه سنة 1911م بالعمل في دار الكتب رئيسًا للقسم الأدبي وأجزل له المراتب طمعًا في مواهبه وثوابًا على فضله حمل الوظيفة على محمل المكافأة الواجبة وظل أكثر النهار قاعدًا في قهوة الكتبخانة، فإذا

طلب إلى الدار لعمل تقتضيه الرياسة قال للجرسون: إذا سأل عني واحد قل له راح الكتبخانة شويه وجاي ".

ولقد كان من جريرة هذه الحياة التي حييها حافظ أن شغلته عن الدرس والقراءة فلم يتكمل بثقافة ولم يتعمق في فلسفة. كان يترجم رواية مكبث لشكسبير فدعي مرة ليحاضر في نادي المدارس العليا وهو يومئذ مجمع الشباب الصالح المثقف فقام فأنشدهم بعض ما ترجم نظمًا عن شكسبير ومثله تمثيلاً أفرغ فيه جهده فأطرب وأعجب، ثم سألوه المحاضرة فأخذ يلقي عليهم من نوادره حتى مضى الوقت ولم يقل شيئًا.

من تلك النوادر قوله: إن الرشيد أُهديت إليه جارية حسناء فسألها: أبكر أنت أم أيش؟ قالت له: أنا يا أمير المؤمنين أيش. وسأل المعتصم هذا السؤال جارية اشتُريت له فأجابت: لقد كثرت الفتوح في عهدك يا أمير المؤمنين.

كذلك كان من جرائر هذه الحياة عليه أن انبهم في نفسه معنى المنزل، وخمد في حسه شعور الأسرة. وذوى في قلبه حب المرأة، فلما ألحت عليه أمه أن يتزوج بعد عودته من السودان سنة 1906م بنى بامرأة من حي عابدين وحاول أن يصبر نفسه على حياة الزوجية فلم يستطع الصبر إلا أربعة أشهر ثم طلقها.

وسُئِلَ مرة: هل أحب؟ فقال: النساء اثنتان: جميلة تنفر من قبحي، ودميمة أنفر من قبحها. ولذلك جف في شعره ينبوع هذه العاطفة فلم يقل في الغزل شيئًا يذكر.

(5)

كان حافظ منذ أدرك مطبوعًا على اليتم لا يعرف إلا أنه ابن القدر، ومع ذلك كان خلطاؤه يرون على وجهه لونًا من الرضا لا يتغير في نعيم ولا بؤس. ومن عجيب الأمر في هذا اليتيم الحزين أنه كان قوي الملكة في فن الضحك. كأن الله عوّضه من نضوب معانيه في قلبه فيضان ألفاظه على لسانه. والمعروف أن نبوغ المصري في ابتكار النكتة وابتعاث الضحك إنما كان تفريجًا له من الكروب التي كابدها في عهود الطغيان والموتان والذل. كان حافظ يتقصص النوادر والفكاهات من مظانها في الكتب ورجال الأدب وأهل المجون، فإذا قصها على من يجالسه زاد في أسلوبها هو وجعل يقلبها

ويتصرف فيها ويبين عنها بمنطقه ووجهه ونبرات من لسانه وحركات من يده. وهو في غزارة محفوظه من الطرف والأشعار والأسمار أوحد الناس بالإجماع.

حدثني المرحوم الرافعي أنه اجتمع في سنة 1912م بحافظ على مائدة مدير الغربية محمد محب، فلما مدت الأيدي إلى الطعام قال له المدير: لي عليك شرط يا حافظ. قال: ما هو؟ قال: كل لقمة بنادرة. فتهلل وجهه وقال: لك عليّ ذلك. ثم أخذ يقص ويأكل والعشاء حافل وحافظ كان نهمًا فما انقطع ولا أخل حتى وفى بالشرط.

وتذاكرنا يومًا كثرة ما كان يحفظ من الشعر فقال الرافعي: نشرت مصباح الشرق في سنة 1900م قصيدة من مطولات ابن الرومي. وكنا يوم صدورها في مجلس يضم حافظًا وبعض الأدباء، فتعجب الشيخ محمد المهدي أستاذ الأدب في دار العلوم من بسطة ابن الرومي في قوافيه. فقال له حافظ: هلم نتساجل في هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا، وكانت القافية من وزن قدرها، أحمرها، أكبرها. وجعلت أنا أحصي عليهما، فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدي يفكر طويلاً ثم ينطق باللفظ ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير حتى انقطع أخيرًا وبقي حافظ يسرد له ما يحفظ من هذا الوزن على هذه القافية.

(6)

عاش حافظ زهاء اثنتين وستين سنة كانت نومًا مضطربًا من غير حلم، أو كما قال هو: كانت حلمًا مزعجًا من غير نوم. فلما أوى في الثلث الأخير من حياته إلى كنف الأمان من منصبه في دار الكتب استراح للخفض واستنام للدعة وأعفى قريحته من قول الشعر فلم ينظمه إلا مدفوعًا إليه حينًا بعد حين. كان همه كله في الحديث يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس، وأينما يكن يكن الأنس الشامل والظرف الناصع والأدب الغض والحديث الذي يمتزج بالروح ويغمر بالنشوة جوانب النفس.

كان يعيش بعد خروجه من الجيش مستقلاً مع أمه. فلما توفيت سنة 1908م عاد إلى العيش في بيت خاله. ولما توفي خاله ظل يعيش مع زوجته السيدة عائشة، يقوم على رعايتها بإخلاص الابن البار، وتقوم هي على خدمته بحنان الأم الرءوم، حتى

شارفت حياتها الأجل الموقوت فتوفاها الله سنة 1929م وتوفاه بعدها بثلاث سنين. وكانت هذه السنوات الثلاث عكارة العمر وصبابة الكأس، تجمعت فيها وحشة العيش بعد أن خلت داره من أمه وخاله وزوجة خاله، وهم الثلاثة الذين لازموه طول العمر، وشاركوه في الحلو والمر. وانضوى فيها إلى حزب الوفد وانقطع إلى الزعيم سعد، فأطلق لسانه بالسوء في رئيس الحكومة إذ ذاك إسماعيل صدقي فأخرجه من وكالة دار الكتب سنة 1932م. وترادفت عليها بعدها الأمراض فأصبح لا يشتهي الطعام ولا يستلذ الشراب ولا يجد الراحة إلا في منزله الصغير بضاحية الزيتون.

وفي الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر يوليو من تلك السنة بعد خروجه على المعاش بأربعة أشهر ونصف شهر انتقلت روحه إلى الخلد وبقيت ذكراه للخلود [1].

(1) اقرأ فصلاً من شعره في كتابي وحي الرسالة المجلد الأول.